

أسلوب الالتفات تحولات العلم وثبات المعيار

د. عبدوش العباس

جامعة مولود، معمر ي تيزي-وزو

يعد الالتفات مبحثاً هاماً إن لم نقل محورياً لأنه يقع في مركز تقاطع علوم عدة هي النحو والبلاغة والتفسير والاستدلال وعلم الكلام وغيرها، لكن هذا المبحث لم ينل حظه من العناية لسبب إبستمولوجي إذ "من الملاحظ عبر التاريخ أن علاقة البلاغة بالعلوم المجاورة علاقة معقدة فهي - أي العلوم المجاورة - تمد البلاغة بالعتاد الذي تحتاج إليه حين تكون للبلاغة سلطة وهيبة، وتستفيد من هذه البلاغة في حل معضلاتها الخاصة كل في مجاله، ولكنها ما إن تحس منها بخلل، أو وهن حتى تبادر إلى الاجهاز عليها، والاستلاء على أطراف من أراضيتها..."¹ ويبدو أن الالتفات قد عانى مما عانت منه البلاغة وهي العلم الأم الذي نشأ في حضنه.

لكن حال الالتفات ظل كما هو حتى بعد أن عادت البلاغة "امبراطورية" تصدر المفاهيم والمصطلحات إلى العلوم الأخرى بحيث أصبحت منطقة مشتركة يستعان بها في الإشهار والسياسة والتعليم، مبينة عن انبعاث قوي منذ ستينات القرن الماضي إذ إن أسلوب الالتفات لازال لم يلق الاهتمام اللائق على الرغم من تطور العلوم التي يضرب بجذورها فيها، والتي أصبحت علوماً ملحقة بالبلاغة أو متقاطعة معها كلسانيات الخطاب والنقد النفسي والسوسيولوجي، والمنطق والحجاج، والتداوليات الخ.

إن هذه الحالة من تطور البلاغة والعلوم المجاورة وثبات النظرة المعيارية بل والسطحية إلى أسلوب الالتفات قد جعلتنا نحصره بين طرفي معادلة شبه متناقضة

- كما هو واضح من العنوان - فهل يعقل أن يبلغ علم ما أوج تطوره، في حين أن مبحثا هاما من مباحثه يظل مقيدا بمعايير قد أثبت العلم خطئ بعضها، وسداجة بعضها الآخر؟

يعرّف الالتفات اصطلاحاً بأنه "العدول من أسلوب في الكلام إلى أسلوب آخر مخالف للأول"² وهو تعريف يجعل الالتفات مرادفا للعدول، ويدخله ضمن أساليب الخروج على مقتضى الظاهر، أما ابن المعتز فيعرفه بأنه "انصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار، وعن الإخبار إلى المخاطبة، وما يشبه ذلك من الانصراف من معنى يكون فيه إلى معنى آخر"³ وهو تعريف يلاحظ أن فيه تخصيصاً لما يعممه التعريف الأول، فابن المعتز يعتبره انتقالاً من المخاطبة إلى الإخبار ومن الإخبار إلى المخاطبة لكنه يضيف إلى إضافة مهمة سنقف عندها لاحقاً هي أن الالتفات قد يكون انتقالاً من معنى يكون فيه إلى معنى آخر.

ويعتبر محمد مشبال أن تعريف الزركشي للالتفات يتمثل في الانتقال بين صيغ الضمائر انتقالاً مقصوداً هو تعريف استوحاه من الزركشي الذي ارتكز فيه بدوره على نص لحازم القرطاجي⁴ ويلاحظ أن هذا التعريف الأخير يكاد يحصر الالتفات في الانتقال بين الضمائر، وإن كان بعضهم يرى أن مقولة الالتفات قد تتبسط دلالتها حتى لتكون باتساع الخطاب الأدبي إطلاقاً فإن هنالك شبه اتفاق على أن أشهر وجوه الالتفات هي:

1- الالتفات من الغيبة إلى الخطاب كما في قوله تعالى: ﴿فَتَكُونُ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كُنَزْتُمْ لَأَنْفُسِكُمْ﴾ (التوبة 35) فانقل من ضمير الغائب في جباههم وجنوبهم إلى الخطاب في كنزيت.

2- الالتفات من الخطاب إلى الغيبة كما في قوله تعالى: ﴿... حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ...﴾

(يونس 22) فانقل بين ضمير الخطاب في (كنتم) إلى ضمير الغائب في (جرين بهم).

(3) - الالتفات من التكلم إلى الغيبة كما في ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ فمن الكلام بضمير المتكلم (نحن) انتقل إلى ضمير الغائب (الربك)

(4) - الالتفات من الغيبة إلى التكلم قال تعالى ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيْنًا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا...﴾ (فصلت 12) فمن ضمير الغائب في (قضى وأوحى) انتقل إلى ضمير المتكلم في (زينا)

(5) - الالتفات من الخطاب إلى التكلم كما في:

تطاول ليلك بالأنثمد	ونام الخلي ولم ترقد
وذلك من نبأ جاعني	وخبرته عن أبي الأسود
انتقل من المخاطب في (ليلك) إلى المتكلم في (جاعني)	

(6) - الالتفات من التكلم إلى الخطاب كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (يس 22) فانقل من المتكلم (لي، أعبد) إلى المخاطب ترجعون، وكان مقتضى الظاهر أن يقول: أرجع.

إن الملاحظات التي يمكن تسجيلها على التعاريف والأمثلة التي تتواتر في كتب البلاغة عن الالتفات هي أن:

(أ) - أغلبها أمثلة قرآنية تعتبر الأسلوب السامي الذي يجتذى في هذا الضرب من البلاغة.

(ب) - إن كون الأمثلة من القرآن يكسبها وجهة بل شرعية تجعل العدول عن القاعدة مباحا ومطلوبا.

(ج) - تراوح الأمثلة بين العدول عن اللفظ إلى عدول عن الدلالة، والانتقال من علم بديع إلى علم معان مكا ينضج من تعريف ابن المعتز.

(د) - أن الانتقال من اللفظ إلى المعنى ومن البديع إلى المعاني قد جعل أسلوب الالتفات محل نزاع بين علوم مختلفة كل منها يدعيه لنفسه، فمن علم الصرف إلى علم التراكيب فعلم الدلالة في علوم النحو، ومن علم المعاني إلى علم البديع في علوم البلاغة.

(هـ) - بالتمعن في التعريفات والأمثلة يتضح أن مبحث الالتفات تتجاذبه مباحث بلاغية حديثة - كما سنوضح - تنتمي إلى التداولية وتحليل الخطاب كالتلفظ والذاتية، وأفعال الكلام .. الخ.

بالإضافة إلى ما سبق ذكره من تعاريف وأمثلة متواترة يورد البلاغيون شرطين أساسيين في أسلوب الالتفات، أحدهما وجود جملتين يستخدم في الثانية أسلوب مغاير للأسلوب الأول يخرج به عن مقتضى الظاهر وما يترقبه المتلقي، والثاني أن يكون الضمير في الأسلوب الأول عائداً على الأسلوب الثاني في الوقت نفسه⁵. إن هذا الذي أوردناه - على قلته - كاف لإعطاء فكرة أولية عن أسلوب الالتفات، لكن الذي ينبغي تسجيله بالنسبة إلى البحث البلاغي الحديث هو أن كل ما يتعلق بالالتفات - على أهمية هذا الأسلوب - إنما يتعلق ببلاغة الجملة وبعلم لغة الجملة، ولا يكاد يواكب التحول إلى بلاغة الخطاب ولسانيات الخطاب. فضلاً على أن كل ما وضع من تعاريف ومن قواعد قد تم في شروط إبستمولوجية تحتاج إلى إعادة نظر، بمعنى أن للأمر علاقة بعلم العلم ومعرفة المعرفة وبالأسئلة التي تستجد عند كل منعرج معرفي حاد، وبالإجابات التي تقترحها أو تفرضها تلك التحولات، وكما هو ملاحظ فإن الشرطين المذكورين أعلاه يشيران إلى أن الالتفات يجري خلال العلاقة بين جملتين، أي أنه يجري في إطار ضيق جداً كما أن الأمر في الشعر يجري بين شطرين شعريين أو بيتين في أحسن الأحوال ضمن نظرية استقلالية البيت الشعري، إضافة إلى أن الشرطين المذكورين لا يكادان يشيران إلى السياق بالمعنى الواسع ولا إلى شروط إنتاج ذلك الأسلوب الالتفاتي.

فضلا عما تمت الإشارة إليه فإن البلاغيين يعتبرون أن من دواعي اللجوء إلى هذا الأسلوب كون الكلام إذا جاء على أسلوب واحد وطال حسن تغيير الطريقة نظرية لنشاط السامع واجتذابا لسمعه، ومن دواعيه كذلك (الاتساع في اللغة)، وهي معايير كما يلاحظ غير دقيقة وخارج لغوية، إذ إن ضرورة تغيير الكلام إذا طال معيار يحتاج إلى ما يضبطه، كما أن نظرية نشاط السامع أمر لا علاقة له بالدلالة وبالإرسالية، وأما معيار الاتساع في اللغة فينطبق على اللغة عموما قبل الاستعمال وليس بالكلام.

ولتوضيح هذه المآخذ على النظرة التقليدية، نضرب مثالين لأسلوب الالتفات من القرآن: الأول قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَعَذَّبْنَاهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ * وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمُ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (56-57)، أما المثال الثاني فقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَانُفِقُوا فِي عَذَابٍ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (106-107).

إننا إذا تركنا معيار (التوسع في اللغة) الذي يرتبط بالملفوظية أكثر مما بالتلفظ وبما قبل الاستعمال أكثر منه بالاستعمال، فبوسعنا أن نتساءل هل يتعلق الأمر في الانتقال بين الضمائر من قوله تعالى (فأعذبهم) إلى قوله (فيوفيهم) من المثال الأول ومن قوله (أكفرتم بعد إيمانكم) إلى قوله (ابيضت وجوههم فهم في رحمة الله هم فيها خالدون) هل يتعلق أولا بنظرية السامع أو بتغيير الأسلوب بعد أن طال؟ وهل يتعلق الأمر ثانيا بالعلاقة بين آيتين من كل مثال، أم أن الأمر يتعلق بأسلوب متواتر في الخطاب القرآني كله؟

إن الإجابة على السؤالين السابقين يتوقف عليها تحديد المقصدية من اللجوء إلى هذا الأسلوب، إذ من البين أن هذه المقصدية هي الهدف من العلاقة التواصلية في

القرآن في المقام الأول وليس التوسع في اللغة وتطرية السامع، ونسارع فنقول بأن ظاهرة الانتقال بين ضمائر محددة وفي سياق بعينه تتواتر في القرآن بشكل يكاد يكون منتظما، فأما السياق المذكور فهو الكلام عن الآخرة وتحديدًا عن الجنة والنار وأما أطراف الخطاي فهم الله جل وعلا (مخاطبًا) من جهة ثم الكفار (مخاطبًا) في حال الكلام عن النار، والمؤمنون (مخاطبًا) في حال الكلام عن الجنة.

نحن في المثاليين القرآنيين أمام انتقال يحدث مرة في الضمائر العائدة على المخاطب وهو الله سبحانه وتعالى، من (أعذبهم) إلى (فيوفيههم) أي من متكلم إلى غائب دون أن يحدث انتقال في ضمائر المخاطب، هذا في المثال الأول، وأما في المثال الثاني فيحدث الانتقال في الضمائر العائدة إلى المخاطب من (الذين اسودت وجوههم) إلى (أكفرتم) ومن (ابيضت وجوههم) إلى (فهم في رحمة الله هم فيها خالدون)

إن التمعن في الالتفات المشار إليه يوضح أن الانتقال قد تم مرة في المخاطب ومرة في المخاطب، وأنه في المرة الثانية قد حدث انتقال أيضا لكنما بشكل غير مباشر في (المتلفظ)، وبتعبير آخر فإن طارح السؤال (أكفرتم؟) لا يمثله ضمير واضح ويعود على من طرح السؤال، لكنه يمل طابع مرسل الخطاب الذي يصبح حاضرا عبر عملية الاستفهام ذاتها. أي أننا في هذه الحالة لا نستطيع فصل الانتقال بين الضمائر (الالتفات) عن عملية الاستفهام، فالالتفات يحدث داخل عملية الاستفهام على شكل تلفظ فيتظافر الاثنان للتعبير عن (حضور) المخاطب وهي عملية تتواتر كثيرا في القرآن، وهذا (الحضور) يعبر عنه بطرق مختلفة لا يسع المجال لذكرها كلها والتمثيل لها، ومن هذا الطرق إضافة إلى الاستفهام بشتى أصنافه، هناك الأمر والنهي والحوار وغيرها. بمعنى أن عملية الانتقال من الغياب إلى الحضور تتم في مستويين، مستوى الضمائر حيث "ومن تقابل صيغ المتكلم من مع صيغ الغائب استنبط Benveniste تقابلا أكثر شمولًا، تشترك فيه الضمائر مع

غيرها من المفاهيم ولاسيما مع وحدات الزمان والمكان فميز بين الكلمات الفارغة معنويا (Mots vides) والكلمات المليئة (Mots pleins)، وربط الكلمات الفارغة بذاتية المتكلم، والمليئة بموضوعية التعبير عن الغائب...⁶ بمعنى أن التعبير عن ذاتية المتكلم شكل من الحضور.

أما السؤال الذي يطرح نفسه فهو لماذا هذا التعبير عن الحضور؟ ثم لماذا هذا الاطراد في التعبير عنه؟ وأخيرا ما هو السياق الموضوعي الذي يحدث فيه ذلك؟ ومن أجل مزيد من التوضيح للهدف الذي نرمي إليه نحتاج إلى النظر في مثالين آخرين من القرآن هما من سورة الطور ومن سورة الأحقاف:

من الطور: ﴿فَوَيْلٌ لِلْيَوْمَنِذِرِ لِلْمُكَذِّبِينَ * الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ * يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا * هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ (الطور/11-15)

من الأحقاف: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبَّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (34).

ظاهر أن الكلام موجه من الله سبحانه إلى الكفار، وأن ما يسمى في البلاغة التقليدية مخالفة مقتضى الظاهر يتمثل في الانتقال من ضمير الغائب (هم) في المثالين ويعود على الكفار إلى ضمير المخاطب (أنتم) ويعود أيضا على الكفار.

إن البلاغة التقليدية سنتكفي من المثالين بما ذكرنا دون أن نقف مليا عند علامات عديدة أخرى، ودون أن توضح لنا لماذا لا يحدث هذا الانتقال مع المؤمنين في أغلب الأمثلة كما هو الشأن في المثالين الأسبقين من سورة آل عمران.

يلاحظ المتمعن في المثالين أعلاه أننا هنا أمام مقام خطاب يشمل عالمي الغيب والشهادة، وأن الخطاب يجري أولا في عالم الشهادة متكلما عن الكفار بضمير الغائب لينتقل بنا فجأة إلى عالم الغيب (النار) مخاطبا الكفار بضمير المخاطب، أي أن الانتقال يتم على مستويين آخرين فضلا عن مستوى الضمائر، هما مستوى الزمان والمكان

وأن هنالك علامات إشارية ومؤشرات Déictiques و Embrayeurs⁷ فإضافة إلى الضمائر هناك تكرار لظرف الزمان (يوم) في المثالين واسم الإشارة (هذا) وفعل الماضي الناقص (كنتم) إضافة إلى علامة أخرى هي الاستفهام في المثالين، وهي علامات تتواتر في الخطاب القرآني كلما توجه الخطاب إلى الكفار حين الكلام في مقام عالمي الغيب والشهادة وبتعبير أوضح فإن المقصد هو أن ما يراه الكفار غيبا ويكذبون به وبه يكفرون سيتحول إلى (حاضر) ملموس لذلك فالكفار المغيبون في الحاضر (محضرون) في الغيب ولتأكيد ذلك يستعمل القرآن أدوات عدة تؤكد هذا الانتقال في الزمان والمكان بما ذلك الاستفهام الذي يمثل حوارا يجري في الزمن الحاضر ويقطع استمرار الماضي كما يوضع علم السرد الحديث، لذلك فإن القرآن كثيرا ما يذكر فعل الإخضار هذا لفظا أحيانا كما في:

﴿ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ الروم 16.

﴿ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ سبأ 38.

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ الصافات 127.

﴿ ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ القصص 61.

﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ الصافات 57.

وتجدر الإشارة إلى أن هنالك أساليب عدة للتعبير عن هذا المقصد قد لا يسع المجال لذكرها، فإذا ما لوحظ أن أسلوب الالتفات ليس مطردا بالشكل المشار إليه فإن على المحلل أن يبحث عن أسلوب آخر غير ظاهر يؤدي هذا المقصد الذي ينتظم مقام الكلام إلى الكفار عن عالم الغيب (النار) وذلك في الخطاب القرآني كله وليس في (جملتين) كما تشير البلاغة التقليدية.

تجدر الإشارة إلى أن الكلام عن الالتفات في حال تحليل الخطاب بالمعنى الذي نشير إليه يتطلب الاستعانة بمباحث من علوم عدة كالذاتية وأفعال الكلام والتلفظ والسيمانيات وعلم السرد وغيرها، وإذا كانت العلوم التقليدية تتنازع حول مبحث

الالتفات وغيره من المباحث، كل منها يدعي اختصاصه به⁸ كما أشرنا باقتضاب من قبل فإن العلوم الحديثة تتطافر لتؤدي مهمة تحليل الخطاب على وجه أكثر تعمقا ودقة، لسبب واضح هو أن الخطاب عموما والقرآني منه على الخصوص يتوصل بطرق عدة لتحقيق الرسالة وكل واحد من تلك الطرق ينتمي إلى علم بعينه لكنها جميعها تؤسس لتفعيل الخطاب.

إن هذه النقطة وإن كانت تتطلب بحثا مستفيضا وعودة إليها في دراسات أخرى إلا أننا هنا نكتفي لتوضيحها بمثال عادة ما يتكرر في كتب البلاغة وهو قوله تعالى في سورة يونس آية 22 : ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكَ وَجَرَّيْنَ بِهِمْ بَرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ... ﴾.

واضح أن الالتفات حدث هنا بالانتقال من الخطاب في ضمير المخاطب أنتم في (يسيركم) و (كنتم) إلى الغيبة في ضمير الغائب هم في (جرين بهم، فرحوا جاءهم)

لكن الذي يحتاج منا أن نقف عنده هو إن كان ما يعود عليه الضميران: (ضمير الغائب وضمير المخاطب) هو ذاته، وتعبير أدق فهل إن من أخاطبه هو ذاته من يسمعي وهو ذاته من يستقبل الخطاب وهو ذاته من يتكلم عنه الخطاب؟⁹ هل إذا قلت:

(أ) - منذ الصباح أقول احذر لكنك لم تسمعي

هل يظل الخطاب ذاته والرسالة ذاتها إذا ما قلت:

(ب) - منذ الصباح أقول له احذر لكنه لم يسمعي

إن الفرق بين الأسلوب المباشر في (أ) والأسلوب غير المباشر في (ب) يؤدي إلى اختلاف شبه جذري في الخطاب وفي الرسالة معا من حيث أن من أتوجه إليه بالخطاب في (أ) هو نفسه من أتكلم عنه وقد يسمعي طرف ثالث غير معني

بخطابي وهكذا. أما في (ب) فإن مخاطبي هو غير من أوجه إليه التحذير كأنني أقول يا خالد إنني منذ الصباح أخطر عمر فلم يسمع أما زيد فقد (يستقبل) الرسالة ويحذر إلخ

ولو عدنا إلى المثال القرآني فإن ما لا تأخذه البلاغة التقليدية بالاعتبار هو اختلاف الأطراف المتداولة للخطاب حيث إن:

- يسيركم في البر والبحر: هم كل الناس الذين يسرون في البر والبحر
- حتى إذا كنتم في الفلك: هم الذين يركبون البحر فهم جزء من كل
- وجاءهم الموج من كل مكان: هم جزء من جزء فليس كل من يركب الفلك يجئه الموج من كل مكان.

لذلك فإن الطائفة الأولى وهم المخاطبون في البر والبحر ليسوا كلهم معنيين بركوب البحر ولا هؤلاء كلهم يعانون من اضطرابه، بمعنى أن الطائفة الأولى (مستقبلون للخطاب) وأما الطائفة الثانية فقد يكونون (مستمعين) أما الطائفة الثالثة (فيحدث عنهم) وقد يكونون من الهلكى فهم لن تتاح لهم فرصة الاستماع أو استقبال الخطاب، وهو تحديد تفصيلي لمتداولي الخطاب قد يسهم فيه علم الاستدلال والمنطق.

مقدمة كبرى: كل الناس يسرون في البر والبحر

احتمال: بعض الناس يركبون البحر

نتيجة: بعض الذين يركبون البحر يهلكون

هذا الاستدلال إنما يسهم في تحديد المتداولين للخطاب وفي تأكيد اختلافهم، أما أفعال الكلام فلها هي الأخرى دورها في مبحث الالتفات إذ إنني في المثالين الأسبقين بإزاء فعل إنجازي هو التحذير وفعل في القول هو اللوم على عدم السمع في (أ)، وبإزاء فعل إخباري في (ب) أي أن أفعال الكلام تجعل الانتقال يتم من الانجاز إلى الإخبار هنا وتبين اختلافا كلياً في الرسالة، أما التلطف والذاتية

فيوضحان أن الالتفات أمر مرتبط بالاستعمال والسياق أكثر منه باللغة وبالملفوية.

إن هذا الذي نقول عن تحول العلوم وثبات المعيار لا يعني أن الأمر ينطبق على مطلق التراث البلاغي أو مطلق العلوم الحديثة، إذ إن في التراث من الخطرات ما يحتاج إلى نظر متفحص في ضوء ما أنجز حديثاً، وهنا نعود إلى نص للقرطاجي الذي أشرنا إليه آنفاً والذي اتكأ عليه كثير من البلاغيين بعده في كلامهم عن الالتفات:

"فأما المأخذ الذي من جهة الحيلة الراجعة إلى القائل فمن شأنه أن تقع معه الكلم المستندة إلى ضميري المتكلم كثير. أما ما يرجع إلى السامع من ذلك فكثيراً ما تقع فيه الصيغ الأمرية وما بإيزائها، وبالجملّة تكثر فيها المسموعات التي هي إعلام على مخاطبة، وما يرجع إلى المقول به فكثيراً ما تقع فيها الأوصاف والتشبيهات وأكثر ما يستعمل ذلك مع ضمائر الغيبة...¹⁰"

نريد من هذا القول بأننا بحاجة إلى تحريك المعايير الثابتة وتفعيل المستجد البلاغي باستمرار.

الهوامش:

(1) - محمد العمري: أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، إفريقيا الشرق، د.ط، 2013 ص 13.

(2) - يحيى بن حمزة العلوي: الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز دار الكتب العلمية، بيروت، 1982، ج2، ص 132.

(3) - عبد الله بن النعتر: فن البديع، تح سميح شمس، دار صادر، بيروت ط1، 2013 ص 110.

(4) - ينظر محمد مشبا: البلاغة والأصول، دراسة في أصول التفكير البلاغي العربي، إفريقيا الشرق، 2007، ص 135.

- (5) - ينظر بن عيسى باطاهر: البلاغة العربية مقدمات وتطبيقات، دار الكتب الجديدة المتحدة بيروت، ط1، 2008، ص 182.
- (6) - مريم فرنسيس: في بناء النص ودلالته (محاور الإحالة الكلامية) منشورات وزارة الثقافة السورية، دمشق 1998 د ط ، ص 17.
- (7) - ينظر مريم فرنسيس م س من أجل مزيد من الوضوح، ص 20.
- (8) - من أجل مزيد من الإحاطة بهذه النقطة ينظر:
- عبد الرحمن بودرع: الأساس المعرفي للغويات العربية، منشورات نادي الكتاب لكلية الآداب بتطوان، المغرب، ط1، 2000، ص ص 7، 24.
- وعبد الحميد السيد: دراسات في اللسانيات العربية، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان الأردن ط1، 2004، ص ص 64، 95.
- وبسمة بلحاج رحومة الشكلي: المنوال البلاغي العربي من البناء القائم إلى البناء الممكن - مخبر نحو الخطاب وبلاغة التداول، كلية الأدب بمنويه، تونس ط1، 2014، ص 93 وما بعدها.
- (9) - ينظر من أجل المزيد، كريرا أوركيوني: فعل القول من الذاتية في اللغة، تر، محمد نظيف افريقيا الشرق المغرب 2007، ص ص 8، 50.
- ومحمد نظيف: في التداولية المعاصرة والتواصل، مقالات مترجمة، افريقيا الشرق 2014 ص ص 41، 82.
- (10) - أبو حازم حسن القرطاجي: منهاج البلاغاء وسراج الأدباء، تح محمد الحبيب بن الخوجة دار الكتب الشرفية، رسالة دكتوراه انجزت سنة 1964.